المجلة العربية، جامعة داكا
المجلد ٢٦، العدد ٢٩، يونيو ٢٠٢٥ م، ص. ١٣٥–١٥٤
DOI: https://doi.org/10.62295/mazallah.v26i29.103

Submitted on: 10-08-2024
Accepted on : 06-04-2025
Published on: 28-11-2025

أبعاد بلاغة الإقناع في الخطاب الحجاجي
خطبة "الكوفة" للحَجَّاج بن يوسف الثقفي نموذجا

د. فاطمة الزهراء العسالي *

Abstract

Dimensions of Persuasive Rhetoric in the Argumentative Discourse: The Kufa Sermon of Hajjaj Ibn Yusuf al-Thaqafi as a Specimen

The research aims at eloquently identifying the Arab persuasion and highlighting the relationship between it and the argument speech. It also aims to link the theoretical characteristics of the Arab language of persuasion and its components, and to indicate the tools and mechanisms for its application; by analysing the rhetoric of the Sermon of Koufa of Ben Youssef Al-Thaqafi on the people of Iraq, to reveal their linguistic features, eloquent methods, pilgrimages and deliberative features; By analysing their scales and indicating their accumulation systems in order to achieve a process of persuasion based on influence and influence between the speakers and the addressee (recipient), considering that the role of language speech goes beyond understanding and understanding, to persuade the content and conviction of the speech**.** The high literary text and its (rhetoric) tend to persuade the recipient (addressees) to adopt logical arguments, use linguistic ties, rhetorical mechanisms from exquisite influential methods, graphic tools for understanding and clarity, connotations based on health and certainty, in order to shape the mental evidence into a literary language based on it; The quality of the formulation, the beauty of the style, the splendour of the statement. It is also based on the power of eloquence and eloquence to inform the meaning of the heart of the addressee; In addition to invoking religious, cultural and historical events and references to address the recipient's mind, persuade him of his thoughts and beliefs.

Keywords**:** rhetoric of persuasion, rhetoric, pilgrims, deliberation, language.

* أستاذة زائرة بالمدرسة العليا للأساتذة، جامعة محمد الخامس، الرباط، المملكة المغربية
fatimaezzahraeelassali@gmail.com

المقدمة

تعتبر بلاغة الإقناع، أحد الفنون الأدبية اللغوية التي تتجاوز الفهم والإفهام في الكلام اللغوي إلى الإقناع بفحوى الخطاب، أو الخطابة أو فن الخطبة العربية الأصيلة باعتبارها أحد النصوص الأدبية الرفيعة التي تتجه اتجاها إقناعيا يعنى بالمخَاطب متلقي الخطاب الأدبي، باعتماد الأساليب اللغوية البديعة المؤثرة، والاحتجاج بالأحوال والأحداث، للوصول إلى ذهن المتلقي لتحقيق غاية الخطاب في نفسه، وهي غاية مزدوجة: متعة واقتناع. فبلاغة الإقناع مطلب رئيس في دراسة الخطاب الحجاجي، الذي أضحى يشكل اليوم نافذة مطلة على حقل الأدب عموما والدراسات البلاغية خصوصا، وذلك لما له من أهمية بالغة وقيمة مضافة للقصدية والهدف الأساسي الذي يراد به التأثير في المخَاطب وحمله على الاقتناع. وعلى هذا الأساس لا يمكن أن يعد الخطاب خطابا حقيقيا إلا إذا كان موجها للغير ويراد به التأثير، وثمة جوهر الخطاب الحجاجي، على اعتبار أن الحجاج من الحجة "وهي ما دلّ به على صحة الدعوى، وقيل الحجة والدليل واحد" (الجرجاني ١٤٠٥ـ، ١١٢) ؛ بمعنى أنه مرادف للبرهان والدليل الذي يعتمده المتكلم لإثبات قضية أو فكرة ما، قصد إقناع خصمه والتغلب عليه، باستخدام آليات لغوية بلاغية.

كما أن الحجاج أحد أهم مقومات الخطابة بل هو غايتها وهدفها بحد ذاته؛ باعتباره فكرة بلاغية هدفها إقناع المتلقي، ذلك أن الخطابة هي فن مخاطبة الجماهير التي تعنى بإقناع الجماهير واستمالتهم، لذا من الضروري على الخطيب أن يبني كلامه على الحجج والبراهين، والأدلة اللغوية وغير اللغوية لإحداث تغيير في الموقف الفكري والعاطفي للمخاطَب. ولكي تتم عملية الإقناع انطلاقا من المخاطِب الذي يجب أن يكون قادرا على استمالة المخَاطَب وإحداث تغيير في نفسه، هذا الأخير الذي ينبغي أن يكون مهيأ لقبول الحجة والاقتناع بها باعتماد آلية الخطاب وما يتضمنه من أساليب حجاجية يتم من خلالها التوصل إلى إقناع المخَاطَب.

وقد اختلفت وتنوعت أوجه التخاطب الإنساني إلى خطابات كتابية وأخرى شفوية، فكانت أساليب الحجاج في هذه وتلك، لأن الحجج هي أساس النصوص لإيصال الأفكار والمقاصد الموجهة من المتكلم إلى المتلقي، فنجد الخطاب الحجاجي يتضمن كل وسائل الإقناع، والاستمالة، والتحاور في مختلف أنواع الخطابات دينية كانت، أو قضائية، أو سياسية؛ وهو ما نجده في خطبة "الكوفة" للحَجّاج بن يوسف الثقفي على أهل العراق؛ التي تعد أنسب خطاب لإبراز أبعاد بلاغة الإقناع في الخطاب الحجاجي، وللكشف عن آلياتها البلاغية، واللغوية، والتداولية.

المبحث الأول: التعريف بالحجَّاج بن يوسف الثقفي وبيان مناسبة خطبته على الكوفة وغرضها.

١. الحجَّاج بن يوسف الثقفي

ولد الحجَّاج بن يوسف بن حكم بن أبي عقيل بن مسعود الثقفي سنة ٤٠ هـ وتوفي سنة ٩٥ هـ، أبوه هو يوسف بن حكم وأمه هي فارعة بنت همّام بن عروة الثقفي. نشأ في الطائف، وتعلّم القرآن الكريم وتبيّن الحديث النبوي الشريف، وامتلك فصاحة وبلاغة لغوية عذبة، وقد ولاه أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان ولاية الحجاز والعراق، كما لعب دورا أساسيا في تثبيت أركان الدولة الأموية، كونه من أكثر القواد العسكريين حكمة وتفطنا.

فضلا عن أنّهُ يعد سياسيا أمويا أمينا، وخطيبا بليغا يجمع بين السيف والقلم، فقد كان ذا شجاعة، ومكر، ودهاء، وشهامة عظيمة، ولسان بليغ؛ فهو من أشهر خطباء العصر الـأموي، وتشهد خطبه على مقدرته الفائقة في البلاغة والبيان، وقد قال عمرو بن العلاء: "لم أر قرويين أفصح من الحسن والحجَّاج" (الجاحظ ١٩٩٨، ١٦٣)

ولحنكته السياسية وفطنته وذكاءه ولاّه حاكم الدولة الأموية عبد الملك بن مروان قيادة أشهر وأخطر بلد لا تهدأ به الثورات والمؤامرات ضد حكم بني أمية، فالعراق هو منشأ ومعقل الشيعة والخوارج أحد الفرق السياسية التي تعد ألذ أعداء بني أمية، لكن الحجَّاج ورغم كبر حجم التمرد لم يهنأ له بال حتى أخمد حريقه، وأعاد نهضة العراق من جديد؛ بالتركيز على كل مجال محرك لازدهار هذا البلد وتطوره انطلاقا من: (زيادة ١٩٩٥، ٩٨، ١٢٦).

- **المجال الديني:** حيث عمل على العناية بالقرآن الكريم، من خلال الاهتمام بتنقيطه وتشكيل الحروف العربية بشكلها الحالي، بسبب تسرب اللحن إلى القرآن الكريم بعد أن دخل غير العرب إلى الإسلام وفساد الكلام، فكان أنْ أمر الحجَّاج نصر بن عاصم بن الليثي أن ينقط القرآن الكريم للمحافظة عليه من أي خطأ مقصود أو غير مقصود.
- **المجال العسكري:** نشطت الفتوحات بعهد ولاية الحجَّاج على العراق حيث قام بإرسال الجيوش بقيادة آل المهلب ففتحوا بلاد ما وراء النهر، كذلك قام بعدهم قتيبة بن مسلم الباهلي بإكمال تلك الفتوحات حتى وصلت طلائع القوات العسكرية إلى بلاد الصين، وقد خضعت له بلاد السند، وأدانت له بلاد الترك، واعتنقت الإسلام بفضل الله، ومن ثم بهِمّة الحجاج ودهاءه وإصراره.

- **المجال الاقتصادي والتجاري:** عمل الحجّاج على سك عملة عربية للتداول والتبادل التجاري؛ حيث بدأ التعامل بالدرهم والدينار العربيين، أخرج بهما الدولة العربية من تأثير النفوذ البيزنطي، كما اهتم الحجّاج بالأسطول البحري حيث أنشأ نوعا من السفن المسطحة التي تلائم الحركة التجارية البحرية بمياه الخليج العربي.
- **المجال الفلاحي:** ركز الحجّاج على تنشيط عملية الزراعة من خلال حث الفلاحين على زرع مختلف المنتوجات الفلاحية، واستصلاح الأراضي، وردم المستنقعات، ومنع السكّان من الهجرة نحو المدينة كي تبقى الأراضي تجود بالثمار والزرع الذي يحقق الاكتفاء الذاتي وينمي الاقتصاد الفلاحي.
- **المجال العلمي والإداري:** نقل الحجّاج مهمة الإدارة من الفرس والروم، الذين كانوا كبار الموظفين في إدارة الدولة، وكانت الدولة تحت سيفهم إداريا، لكن بتعريب الحجّاج للدواوين تولى العرب حينها إدارة شؤون دولتهم.

٢. مناسبة خطبة الحجَّاج على الكوفة

لكون العراق تاريخيا من البلدان القوية علميا ومعرفيا، وفكريا وثقافيا، فهو أرض الحضارات ومهد الثقافات، والآراء والمواقف؛ وتلاقح الخبرات والمعارف والتجارب من مختلف الأقطار؛ جعله ذلك لا يخضع لحاكم بسهولة، ولا يكاد ينتهي به تمرد أو ثورة على السلطة الحاكمة حتى تبدأ مؤامرة أو تمرد جديد ضد بني أمية، التي يكثر خصومها وأعداءها في العراق، بسبب تعدد الجهات المعارضة لحكمهم خاصة من الشيعة والخوارج.

لذلك كان لزاما على الحكم الأموي ضرب العراق بيد باطشة وقمعه بشدة حتى يخضع للحكم الأموي، وبعد وفاة والي العراق بشر بن مروان شقيق الخليفة عبد الملك بن مروان، وقع اختيار الخليفة الأموي على الحجَّاج بن يوسف الثقفي لتوليته أمور العراق، ذلك أن رأى فيه الحاكم الأموي كل المؤهلات الضرورية لتولية العراق فأرسله إليه، ليحكم قبضة الدولة الأموية عليه، وكان وصوله تنبيها لبداية مرحلة جديدة تمس التغيير الجذري بهذا البلد الثائر.

وقد عمد الحجّاج بن يوسف الثقفي فور وصوله للكوفة التي هي حاضرة العراق آنذاك بجمع الناس في المسجد ليبين لهم نهجه بالحكم، بخطبة عظيمة، خاطبت قلوبهم وعقولهم قبل أسماعهم،

بحيث تعد أمتع ما وصل إلينا من الخطب السياسية، سجلَّها الأدباء والبلغاء والنقاد؛ بحيث لا يزالون يناقشونها ويدرسونها بالوصف والتحليل والبحث إلى الآن؛ لما تتضمنه من قول مختصر مفيد لآذان أهل العراق من الوعد والوعيد ما لم يسمعونه ممن هم قبله والتي جاءت كما يلي:

"حدثنا محمد بن يحيى بن علي بن عبد الحميد، عن عبد الله بن أبي عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر قال: بينمَا نحن في المسجدِ الجامعِ بالكوفةِ –وأهلُ الكوفةِ يومئذٍ ذوو حالٍ حَسَنَةٍ، يَخْرُجُ الرَّجلُ منهم في العشرةِ والعشرينَ مِن مَوَالِيه– إذ أتى آتٍ فقال:

هذا الحجّاجُ قد قَدِمَ أميرًا على العراقِ.

فإذا به قد دخلَ المَسْجِدَ مُعْتَمًّا بعِمَامَةٍ قد غَطَّى بها أكثرَ وَجْهِهِ، مُتَقَلِّدًا سَيْفًا، مُتَنَكِّبًا قَوْسًا، يَؤُمُّ المِنْبرَ، فقام الناسُ نحوَه حتى صَعِدَ المِنْبرَ، فمكثَ ساعةً لا يَتَكَلَّمُ، فقال الناسُ بعضَهم لبعضٍ:

قَبَّحَ اللهُ بني أُمَيَّةَ؛ حيث تَسْتَعمِلُ مثلَ هذا على العراقِ.

حتى قال عميرُ بنُ ضَابئٍ البُرْجُمِيّ:

ألا أَحْصِبُهُ لكم؟

فقالو: أَمهِلْ حتى نَنْظُرَ.

فَلَمَّا رأى عيونَ الناسِ إليه حَسَرَ اللِّثامَ عن فِيْهِ، ونَهَضَ، فقال:

أَنَا ابنُ جَلا وطَلاَّعِ الثَّنَايَا ** متى أَضَعِ العِمَامَةَ تَعْرِفُونِي

ثم قال:

يا أهلَ الكوفةِ، أَمَا واللهِ إنّي لأَحْمِلُ الشَّرَّ بحِمْلِهِ، وَأَحْذُوهُ بنَعْلِهِ، وَأَجْزِيهِ بمِثْلِهِ، وَإِنّي لأَرَى أَبْصارًا طَامِحَةَ، وأعْنَاقًا مُتَطَاوِلَةً، ورُؤُوسًا قد أَيْنَعَتْ وحانَ قِطَافُها، وَإِنّي لَصَاحِبُها وكَأَنّي أَنْظُرُ إلى الدِّمَاءِ بينَ العَمَائِمِ واللِّحَى تَتَرَقْرَقُ، ثم قال:

هذا أَوَانُ الشَدِّ فَاشْتَدِي زِيَمْ ** قد لَفَّها اللَّيلُ بسَوَّاقٍ حُطَمْ وضَمْ

ليس برَاعِي إبِلٍ ولا غَنَمْ ** ولا بجَزَّارٍ على ظَهْرٍ وَضَمْ

ثم قال:

قَدْ لَفَّهَا اللَّيْلُ بعُصْلَبِيّ ** أَرْوَعَ خَرَّاجٍ مِن الدَوِيّ

مُهَاجِرٍ ليسَ بأَعْرَابِي

ثم قال:

قَدْ شَمَّرَتْ عن سَاقِهَا فَشَدُّوا ** وَجَدَّتِ الحَرْبُ بكمْ فَجِدُّوا
وَالقَوْسُ فيها وَتَرٌ عَرَدٌّ ** مِثْلُ ذِرَاعِ البَكْرِ أو أَشَدُّ
لا بُدَّ مِمَّا ليسَ منه بُدُّ

إِنّي واللهِ يا أهلَ العراقِ، ومَعْدِنَ الشِّقَاقِ والنِّفَاقِ، وَمَساوِئِ الأَخْلاقِ ما يُقَعْقَعُ لي بالشَّنَانِ، ولا يُغْمَزُ جَانِبِي كَتَغْمَازِ التِّيْنِ، ولقد فُرِرْتُ عن ذَكَاءٍ، وفُتِّشْتُ عن تجربةٍ، وجربتُ إلى الغايةِ القُصْوى، وَإِنَّ أميرَ المؤمنينَ أطالَ اللهَ بقاءَه نَثَرَ كِنَانَتَهُ بينَ يَدَيْهِ، فَعَجَمَ عِيدَانَها، فَوَجَدَنِي أَمَرَّها عُودًا وَأَصْلَبَها مَكْسَرًا، فرماكم بي لأنَّكم طَالَمَا أَوْضَعْتُم في الفتنِ، واضْطَجَعْتُم في مَرَاقِدِ الضَّلالِ، وَسَنَنْتم سَنَنَ الغَيِّ.

أَمَا واللهِ لأَلْحُونَّكم لَحْوَ العَصَا، ولأَقْرَعَنَّكم قَرْعَ المُرُوءَةِ، ولأَعْصِبَنَّكم عَصْبَ السَّلَمَةِ، ولأَضْرِبَنَّكم ضَرْبَ غَرَائِبِ الإبلِ؛ فإنَّكم لَكَأَهْلِ قَرْيَةٍ كانتَ آمنةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيها رِزْقُها رَغَدًا مِن كلِّ مكانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَها اللهُ لِبَاسَ الجوعِ والخوفِ بِمَا كانوا يَصْنَعونَ.

وَإِنّي واللهِ لا أَعِدُ إلاَّ وَفَيْتُ، ولا أَهَمُّ إلاَّ أَمْضَيْتُ، ولا أَخْلُقُ إلاَّ فَرَيْتُ؛ فَإِيَّايَ وهذه الشُّفَعَاءَ والزُّرَافَاتِ والجماعاتِ، وقالاً وقِيلاً، و«ما تقولُ؟» و«فِيمَ أنتم وذاك؟».

أَمَا واللهِ لَتَسْتَقِيمُنَّ على طريقِ الحَقِّ أو لأَدَعَنَّ لكلِ رجلٍ منكم شُغْلاً في جَسَدِهِ!

وإِنَّ أميرَ المؤمنينَ أَمَرَنِي بإِعْطَائِكم أُعْطِياتِكم، وأَنْ أُوَجِّهَكم لِمَحارِبَةِ عَدُوِّكم مع المُهَلَّبِ بنِ أبي صُفْرَةَ، وإِنِّي أُقْسِمُ باللهِ لا أَجِدُ رَجلاً تَخَلَّفَ بعدَ أَخْذِ عَطَائِهِ بثلاثةِ أَيَّامٍ إلاَّ سَفَكْتُ دَمَهُ، وَأَنْهَبْتُ مَالَهُ، وَهَدَمْتُ مَنْزِلَهُ!" (الجاحظ، ١٩٩٨، ٣٠٧، ٣٠٩).

٣. غرض خطبة الحجاج على الكوفة

إن غرض الحجَّاج بن يوسف الثقفي من خطبته على الكوفة هو بيان هويته وقدرته السلطوية على أهل الكوفة، ليحسبوا له ألف حساب قبل الإقدام على فعل أي شيء. فالمقصدية منها هو إقناع أهل العراق على اختلاف مراتبهم في المجتمع بالقضية التي يحملها قوله النصِّي الحجاجي وهو التراجع عن تمردهم الثوري، ما استلزم منه فعالية لغوية ومنطقية تنظم خطبته بطريقة خاصة؛ بدأ فيها بالفعل التطبيقي قبل القول النظري الذي سيستنتجونه أهل العراق بأنفسهم قبل إخبارهم إيّاه بنفسه؛ بحيث يتضح ذلك فيما يلي:

- بدأ الحجّاج خطبته عمليا قبل إلقائها، بل فور دخوله للمسجد بطريقة استعراضية غامضة فعلية؛ جاء فيها ملثما محاطا بالجند، وجلوسه المطول على المنبر مع الصمت العميق الاحتيالي الذي أغرى أهل الكوفة بالتجرؤ عليه وكشف ما يختلجونه في نفوسهم.
- صدمة أهل الكوفة عندما خلع العمامة وبدأ بالتعريف عن نفسه بشكل باغتهم لشدة عنف كلامه، فقد عرّف نفسه ببيت من الشعر، ولم يبدأ بالبسملة والحمدلة بل دخل في صلب الموضوع الذي هو أمر، ونهي وتهديد، ووعيد وزجر بالغ القسوة لمن لم يطعه ولم يطع قوانين الدولة الأموية.
- خاطب عاطفتهم بالخوف عكس ما يسري في الخطب المألوفة، مؤكدا لهم أنه سيتبع معهم سياسة البطش وإراقة الدماء، حيث أشار إلى أن السيف هو الأداة التي ستكون الفيصل بينه وبينهم دون الحوار والحديث.
- وصف الحجّاج نفسه بأنه أكثر رجال الدولة الأموية قسوة وثباتا وأصلبهم قوة وشجاعة، وأن اختياره واليا على العراق لم يكن محض الصدفة بل لحنكته وتجربته في ترويض النفوس قبل الأجساد وهو الدواء لدائهم. فلا وجهة لهم غير طاعته طاعة عمياء ومحاربة العصاة، ثم لَوَّح بالسيف لمن عصى أنه سيكون مصيره الموت دون جدال.
- بيّن لهم أنه لا يحكم من فراغ ولا هو ظالم؛ فهو عالم بأحكام الدين وقواعد قرآنه الحكيم؛ حيث أجاد استخدام آيات من القرآن الكريم وذلك بهدف التشبيه بين أهل الكوفة وأهل القرية التي ذكرها الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم (وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة، يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون) (سورة النحل: الآية ١١٢). مقارنا لنعم الله بما وصفه بنعمة أمير المؤمنين عليهم وهي مقارنة غير مقبولة لشدة المبالغة فيها.
- كشف الحجاج عمّا سيحل بأهل العراق من نقم وعذاب ليس صادرا عنه، بل وضح لهم أنه من رأس هرم السلطة وجزاء على ما اقترفته أيديهم مع معاصي وفساد في هذه الأرض دون حسيب عليهم. مبينا لهم أنه يوفي من يعده وسيكون الحق طريق استقامتهم.
- الفعل أساس حضوره؛ وذاك ما فعله باتجاهه نحو ترجمة سياسته بالأفعال على أرض الواقع؛ حيث أمرهم بتوزيع العطاء والتوجه لمحاربة الخوارج، وكل من تخلّف عن ذلك سَفَكَ دمه، ونهبَ ماله وهَدَمَ داره.

المبحث الثاني: أبعاد بلاغة الإقناع الحجاجي في خطبة الحجّاج على الكوفة

إن المطلع على خطبة الحجَّاج بن يوسف الثقفي على أهل العراق سيلاحظ اعتماد هذا المخاطَب أو المتكلم (الحجَّاج بن يوسف الثقفي) خصائص إقناعية حجاجية بلاغية متعددة منها: الوضوح؛ حيث وضح هدفه من الخطاب منذ البداية دون تلاعب لغوي، باعتماد التدرج وأحادية المعنى؛ حيث عرف بنفسه، وكشف عن اختلالاتهم ومعاصيهم، مبينا لهم أنه سيعتمد السيف في تقويم اعوجاجهم وإصلاح حالهم.

كما استعمل مبررات دينية وتاريخية باعتماد آية قرآنية لاستمالة المخاطِب أو المتلقي (أهل العراق) باعتبارها حججا منطقية خاطب بها عقلهم لا عواطفهم، لتعديل سلوكهم التمردي، ومواقفهم الثورية اتجاه حكم بني أمية؛ بحيث يتضح في اعتماد المخاطِب (الحجّاج) على فصاحته اللغوية وبلاغته الإقناعية وذخيرته المعرفية والثقافية، تجعل أهل العراق يعيدون النظر فيما كانوا يحملونه من أفكار ومعتقدات نحو خلق وظيفة تأثيرية فيهم وفي أفعالهم وأقوالهم. وتقوم بلاغة الإقناع الحجاجي على اعتماد الحَجَّاج للآليات التأثيرية التالية:

١. **الآليات البلاغية الحجاجية:** يقصد بالآليات البلاغية كل المكونات والأساليب التي تُعتمد في الخطاب ليتناسب مع غاياته ومقاصده وأهدافه التي ترتبط بتأدية المعنى الجليل واضحا بعبارة فصيحة وصحيحة، يمتزج فيها حسن الإيضاح والدقة في تأليف الكلام، وتصوير ما تنفعل به النفس، ويختلج به القلب، ويتحرك في الوجدان مع العقل من خلال ملاءمة كل كلام للمَوَاطِن التي يقال فيها والأشخاص الذين يخاطبون، على اعتبار أن تأليف الكلمات تأليفا حسنا يكسبها جمالا وقوة؛ ذلك أن البلاغة ليست في اللفظ وحده، وليست في المعنى وحده، ولكنها لازمة لسلامة تآلف هذين العنصرين وحسن انسجامهما؛ وترتبط هذه الآليات البلاغية بـ:

١.١. الصور البيانية:

١.١.١. التشبيه:

وظف الحَجَّاج بن يوسف الثقفي ثلاثة أنواع من التشبيه؛ والتشبيه هو "إلحاق أمر بأمر في صفة أو عدة صفات بأداة تفيد المشابهة أو المماثلة، غايته تقريب الأفكار إلى الآخرين وتبليغها بطريق أبين وأوضح وأبلغ" (الحويني ٢٠٠٢، ٧٥)؛ ومن أنواع التشبيه التي وظفها نجد:

أ. **التشبيه البليغ:** وهو "ما غاب منه وجه الشبه وأداة التشبيه معا (الحويني ٢٠٠٢، ٩٨)، واعتبر بليغا لأنه بحذف الوجه والآداة منه صار يوحي بكمال التطابق بين الطرفين في جميع الصفات. والذي يظهر في قوله:

أَنَا ابنُ جَلا وطَلاَّعِ الثَّنَايَا ** متى أَضَعِ العِمَامَةَ تَعْرِفُونِي

يتضح أنّ الحجّاج نسب لنفسه بعض الصفات، فمرّة يشبه نفسه بابن جلا ومرّة بطلاع الثنايا، وهذه الصفات تدل على قوة الحجَّاج، وحسن اختيار الحجَّاج المشبه به (ابن جلا) ونسبه لنفسه (أنا)، وصفة طلاّع الثنايا التي هي الطريق في الجبل؛ وهي تدل على أنّ الحجَّاج يستطيع تجاوز العقبات، مما أعطى للتشبيه قوة بتطابق الطرفين المشبه والمشبه به، كما أنّ افتتاحه بهما لخطبته جعله أبلغ في إبلاغ أهل العراق لقوته وشجاعته وانعدام خوفه وقدرته على مواجهة الصعاب للوصول إلى هدفه وهو خضوعهم لأوامره وتنفيذ قراراته.

ب. **التشبيه المرسل:** وهو "ما ذكرت فيه أداة التشبيه" (الحويني ٢٠٠٢، ٩٨) وسمي مرسلا لأنه ذكر الأداة أجرى التشبيه جريانا عاديا، فكأنه أرسل على طبيعته. بحيث يظهر ذلك في قوله:

وَالقَوْسُ فيها وَتَرٌ عَرَدٌ ** مِثْلُ ذِرَاعِ البَكْرِ أو أَشَدُّ

مبينا قوة قوسه وشدته في الحرب مشبها إياها بذراع الفتاة البكر التي تكون متكاملة قوية شديدة في مرحلة النضج الصلبة.

ت. **التشبيه المجمل:** وهو "ما لم يذكر فيه وجه الشبه" (الحويني ٢٠٠٢، ٩٨)، لأن في غياب الوجه إجمالا واختصارا؛ بحيث يتبدى ذلك في أقواله المتعددة التالية:

- "لألحونكم لحو العصا"، من خلال تشبيهه للطريقة التي سيسلخ بها جلود أهل العراق عن أجسامهم كطريقة إزالة القشرة عن العصا، فنقل المشبه به من دلالته المادية إلى دلالة معنوية وهي تصوير تهديده لهم في أشد قسوة. ووجه الشبه غير المذكور هنا هو قسوة طريقة اللحو.
- "لأعصبنكم عصب السلمة"، حيث يؤكد الحجاج قراره في عصب أهل العراق كعصب السلمة وهي "شجرة من العضاة، ذات شوك فتعصب أغصانها بأن تجمع وتُشَدَّ بعضها إلى بعض بحبل شديد، ثم تخبط بعضا فيتناثر ورقها" (الجاحظ ١٩٩٨، ٣٠٩)، وجه الشبه هنا كذلك شِدَّة طريقة التعصيب والضرب.

- "لأضربنكم ضرب غرائب الإبل"، شبه ضربه لأهل العراق بضرب غرائب الإبل، ووجه المشترك بينهما هو التشابه في العقوبة التي هي الضرب؛ حيث نقل الصورة من دلالتها المادية إلى دلالة معنوية تجسيدية لقسوة الضرب، مبينا له شجاعته وعدم خوفه منهم، من خلال تأكيده منذ بداية خطابه على عقابهم وتهديدهم بأشد العذاب، للتأثير في عواطفهم.

نستنتج أن الحجّاج من خلال تجسيده لمختلف صور التعذيب، قد أحكم صناعة التشبيهات، ودورها في جعل المتلقي أي أهل العراق خاضعين لأوامره، بسبب خوفهم منه ومن عقابه الشديد الذي سينفذه حتما إن تخلفوا عن تنفيذها.

٢.١.١. الاستعارة:

وهي كلام مجازي أصله تشبيه لكن عدل به عن صيغته الحقيقة، التي هي تشبيه بأركانه وعناصره، إلى صيغة أخرى "حُذِف فيها أحد طرفي التشبيه وأداته ووجهه" (الحويني ٢٠٠٢، ١٠٤)، تهدف إلى إدخال المستعار له أي المشبه في جنس المستعار منه أي المشبه به، تناسيا للتشبيه، والتي تظهر من خلال ما يلي:

أ. **الاستعارة المكنية:** " هي تشبيه لا يذكر فيه المشبه به بل يحذف ويكتفى عنه صفة من صفاته أو خاصة من خواصه" (الحويني ٢٠٠٢، ١٠٤)، وتظهر في قول المخَاطَب "إني لأرى رؤوسا قد أينعت وحان قطافها"، حيث أن المشبه هنا هي رؤوس الخارجين عن خلافة بني أمية والمشبه به الثمر الذي حان وقت قطفه، فحذف المشبه به، وأتى بإحدى لوازمه وهي صفة النضج؛ ما يبين صرامته في الفعل وجديته في تنفيذ وعيده المستقبلي.

ب. الاستعارة التصريحية: "يذكر فيها لفظ المشبه به ويراد المشبه" (الحويني ٢٠٠٢، ١٠٤) تتجلى في قوله "فوجدني أمرها عودا وأصلبها عمودا"، مستعيرا لفظة السهم الذي شبه نفسه به، والذي يوجد داخل الكنانة التي توضع فيها مجموعة من السهام لكنه سهم قوي يصعب كسره، فحذف المشبه الذي هو الحجَّاج وصرح بالمشبه به هو أمرّها عودا. فالكنانة تدل على قادة جيش أمير المؤمنين، متجاوز لذكرهم ومصرحا بالمشبه بهم أو المستعار منهم أي الكنانة وهي قرينة حالية تدل على الحرب والقتال.

يتضح أن الحجَّاج استعان بالاستعارة كآلية بلاغية حجاجية لتقريب صورة قوته وشجاعته وإقدامه عن الأمر دون تراجع إلى ذهن أهل العراق، جاعلا إيَّاهم يدركون مدى قسوته وقدرته على تنفيذ وعوده، ما جعل حاكم بني أمية يوليه عن العراق لجدارته واستحقاقه.

i. **الكناية:**

وهي "لفظ أُطلق وأُريدَ به معناه مع جواز إرادة ذلك المعنى الأصلي لعدم وجود قرينة مانعة من إرادته" (الحويني ٢٠٠٢، ١٠٨) ، فهي تعبير تم استعماله في غير معناه الأصلي الذي وضع له مع جواز إرادة المعنى الأصلي الذي توحي إليه، كما أنه لفظ يعتمد على معنيين أحدهما ظاهر غير مقصود والآخر مخفي وهو المقصود؛ بمعنى أن تدل كلمة أو جملة على شيء معين بشكل مباشر ولكنها تخفي شيئا غيره بشكل غير مباشر وهي أنواع كناية عن صفة، أو عن موصوف، أو عن نسبة. والتي تتثمل في البيت الآتي:

أَنَا ابنُ جَلا وطَلاَّعِ الثَّنَايَا * * * * * * * * متى أَضَعِ العِمَامَةَ تَعْرِفُونِي

تتجلى الكناية في "طَلَّاع الثنايا"؛ وهي صفة تدل على قدرة الحجاج في تحمل الصعاب لبلوغ هدفه؛ فهو يستطيع أن يطلع الثنايا مهما بلغ ارتفاعها، وبالتالي فهنا كناية عن صفة وهي صفة القوة والصلابة.

ونجد في الشطر الثاني من البيت كناية "أضع العمامة"؛ حيث دخل المسجد ملثما، وحتى لو وضع العمامة عرفوه لذيوع صيته وانتشار أخباره في القوة والحزم الإدبار.

كما تخللت الخطبة كناية عن المكر والدهاء والفطنة في قوله "لا يقعقع لي بالشنان"، وظف الحجَّاج لفظ الشنان كناية على دهاءه وحنكته وتجربته الواسعة وعدم القدرة على خداعه، ليصل إلى قصده وهو إظهار صفة أخرى تؤهله أن يكون واليا على العراق.

يتبين لنا أن استخدام الكناية لها دور كبير في جذب المتلقي إلى الخطاب وتشويقه إليه؛ حيث تجعل المتلقي متحمسا لمعرفة ما وراء المقصد والبحث في ذلك لإدراك معرفته؛ بحيث يترسخ في الذهن ويؤثر في النفوس.

٢.١. الأساليب الإنشائية الدلالية:

١.٢.١. أسلوب القصر:

وهو "الحبس والإلزام، أي تخصيص شيء بشيء أو أمر بأمر بطريقة مقصورة ومخصوصة، والشيء الأول هو المقصور والثاني هو المقصور عليه" (الحويني ٢٠٠٢، ٣٦)، خصت قصر صفة على موصوف أو قصر موصوف على صفة، باعتماد إنَّما، أو العطف بلا، أو بل، أو لكن أو تقديم ما حقه التأخير،

أو النفي والاستثناء} الذي يتمثل في قول الحجاج: "لا أَعِدُ إلاَّ وَفَيْتُ، ولا أَهَمُّ إلاَّ أَمْضَيْتُ... "، وفي قوله "لا أَجِدُ رَجلاً تَخَلَّفَ بعدَ أَخْذِ عَطَائِهِ بثلاثةِ أَيَّامٍ إلاَّ سَفَكْتُ دَمَهُ، وَأَنْهَبْتُ مَالَهُ، وَهَدَمْتُ مَنْزِلَهُ" أي تخصيص الوفاء، والإقدام، وسفك الدماء، والنهب، والهدم إذا تخلفوا به، فما يقوله أو يفعله يلتزم به، إذن الوفاء بالوعد والإقدام عن المضي وسفك الدماء، والنهب والهدم مقصور، والحجّاج مقصور عليه. فهو مقصور على هذه الخصال لا يفارقها إلى غيرها من الصفات من الخذلان، والتراجع والتَخَلُّف...

٢.٢.١. أسلوب النداء:

النداء هو طلب طرف ما إقبال طرف آخر المرجو منه الإقبال على المنادي الدَّاعي، وقد خرج به الحجَّاج عن معناه الأصلي الحقيقي الذي هو الدعوة للإقبال إلى تنبيه أهل العراق وتحذيرهم مما هم فاعلوه ومما سيفعله، التي تفهم من سياق الكلام وقرائن الأحوال من خلال قوله "**يا أهلَ الكوفةِ**، أَمَا واللهِ إِنِّي لأَحْمِلُ الشَّرَّ بِحِمْلِهِ، وَأَحْذُوهُ بِنَعْلِهِ، وَأَجْزِيهِ بِمِثْلِهِ.." وفي قوله "إِنِّي واللهِ **يا أهلَ العراقِ**، ومَعْدِنَ الشِّقَاقِ والنِّفَاقِ، وَمَساوِئِ الأَخْلاقِ...".

وذلك لبيان علو مرتبته، وعظمة شأنه، وتنبيهًا لهم على حضور أفعالهم في ذهنه، وعلى انحطاط منزلتهم وصغره مكانتهم، وتحذيرا لهم عن غفلتهم، وشرود ذهنهم عن الحق وتطاولهم على أسيادهم وحُكَّامِهم.

٣.٢.١. أسلوب القسم:

يعتبر القسم من الأساليب الإنشائية القديمة التي عرفها الناس؛ حيث شاع استعمالها في حياتهم لإثبات كلامهم وتوكيده وقد استعمله الحجَّاج بكثرة في خطبته "واللهِ إِنِّي لأَحْمِلُ..."، "وإِنِّي واللهِ لأَلْحُونَّكم..."، "واللهِ لَتَسْتَقِيمُنَّ..."، "وأُقْسِمُ باللهِ..." كل ذلك لتأكيد كلامه وحمل المتلقي (أهل العراق) على الاقتناع به.

كما نلاحظ أن لفظ الجلالة " الله" جاء مبتدئا بأداة القسم الواو، والدافع لهذا القسم هو كونه متأكدا مما يقول وواثقا بنفسه وبقدرته، الشيء الذي سيجعله يحقق قصده المتمثل في إقناع أهل الكوفة والتأثير فيهم.

٤.٢.١. أسلوب التوكيد:

للتوكيد "فائدة مهمة هي التحقيق وإزالة التجوز في الكلام أي إثباته، بمراعاة مقام الخطاب ونفسية السامع، شكا أو إنكارا أو تكذيبا" (الحويني ٢٠٠٢، ٥٧، ٦٩). وقد اعتمد الحجاج أسلوب التوكيد لإيهام المتلقي بصدق كلامه، مبينا له أنه ذو ذكاء وصاحب خبرة، وذلك لإظهار لأهل العراق قدرته على ولايتهم وحكمهم، وتأديبهم وإصلاح اعوجاجهم، لا كما تصوروه خاضعا لهم فهذا ضرب من المستحيل. حيث يتمثل ذلك في قوله " إني لأحتمل الشر بحمله"، "وأني لأرى رؤوسا قد أينعت وحان قطافها..."، "إني لأنظر إلى الدماء ترقرق بين العمائم واللحى".

وذلك لإثبات الحجج والأدلة التي قدَّمها وتأكيده عليها بتثبيتها في ذهنهم، لأنه يعلم بإنكارهم وتمردهم على وُلَاتِهم، مُحسّسا إياهم بدنو مكانتهم، واستعلاءه وسلطته عليهم، وقدرته الكبيرة لا محالة على تنفيذ وعيده، مع عدم قدرتهم على المجادلة والمحاججة.

٥.٢.١. أسلوب الاستفهام:

وهو "طلب العلم بشيء لم يكن معلوما عند السائل وقت الطلب" (الحويني ٢٠٠٢، ٢٤)، إلا أن الاستفهام عند الحجَّاج كان استنكاريا لأنه يعلم بكل شيء عن أهل العراق لقوله: "فَإِيَّايَ وهذه الشُفَعَاءَ والزَّرَافَاتِ والجماعاتِ، وقالاً وقِيلاً، و«**ما تقولُ؟**» و«**فِيمَ أنتم وذاك؟**»". ما يدل على أنه خرج بالاستفهام عن معناه الحقيقي؛ للتعجب من أمرهم، ولتوبيخهم عن تمردهم والاستهزاء بهم، وتحقير أفعالهم واستبعادهم عن الجماعات التي تدل على كثرة الفرق السياسية، التي تخلق الفتن التي تشير إليها عبارة "**وقالاً وقِيلاً**".

٣.١. المحسنات البديعية:

١.٣.١. الإيجاز:

هو "وضع المعاني الكثيرة في ألفاظ قليلة وافية بها موضحة لها وإلا كان الأسلوب قاصرا" (الحويني ٢٠٠٢، ٤٣)؛ إنّه دلالة اللفظ القليل على المعنى الكثير مع الإفصاح والإبانة؛ حيث وظف الحجَّاج الإيجاز في خطبته فجاء في مطلع خطبته بالكوفة ببيت من الشعر؛ اختصر به ما يتمتع به من قوة وحزم بدون أن يشرح، أو يطنب في التعريف عن نفسه.

إذ أنه عرّف عن نفسه بشكل مختصر مفيد، كما نجد الإيجاز في العديد من الجمل الموظفة في خطبته ونذكر على سبيل المثال: "ما أغمز تغماز التين"، التي أظهر من خلالها ما يتمتع به من فطنة تُمَكّنه من كشف ومواجهة الفتن المنتشرة في العراق.

وبالتالي؛ فهي حجة أراد بها الإعراب عن مؤهلاته التي جعلته واليا على العراق، كما أنّ الحَجَّاج هنا لم يوظف الإيجاز بشكل عفوي، وإنّما كان ذلك عن قصد وذلك لشد انتباه المستمع، وتجنب الملل، وترسيخ ما قاله في أذهانهم قصد التأثير فيهم.

٢.٣.١. الجناس:

هو "تشابه الكلمتين في اللفظ واختلافهما في المعنى، وهو نوعان: التام ما اتفقت فيه الكلمتان في نوع الحروف وعددها وحركاتها وترتيبها، وغير التام ما اختلفت فيه الكلمتان في نوع الحروف وعددها وحركاتها وترتيبها" (الحويني ٢٠٠٢، ١٨٨، ١٨٩).

والمتأمل في النص سيلاحظ حضور الجناس غير التام بكثرة " فَشَدُّوا – فَجِدُّوا، حُطَمْ – وضَمْ..." محدثا وظيفة صوتية تقاربية في المعنى الرابط بين المعنيين، ونغما موسيقيا آثار نفوس أهل العراق وأطرب أذانهم للاستماع، وقد استعمله الحجَّاج لإثارة الانتباه عن طريق الاختلاف في المعنى، حيث شدّ انتباه المتلقي وذلك للوصول إلى هدفه الأساس وهو حمله على الاستماع للاقتناع.

٣.٣.١.السجع:

هو "من فنون القول فيه اللحن والنغم" (الحويني ٢٠٠٢، ١٩٣)، لتوافق فقرتين أو أكثر في الحرف الأخير، وتسمى الكلمة الأخيرة في كل فقرة فاصلة، وتُسَكَّن بالسكون الفاصلة دائما في النثر للوقف، وأفضل السجع ما تساوت فقراته، وكان رصين التركيب، بعيدا عن التصنع والتكلف، خاليا من التكرار في غير فائدة؛ والذي يبرز بكثرة في خطبة الحجَّاج بن يوسف الثقفي على الكوفة "يا أهلَ الكوفةِ، أَمَا واللهِ إِنّي لأَحْمِلُ الشَّرَّ بِحِمْلِهِ، وَأَحْذُوهُ بِنَعْلِهِ، وَأَجْزِيهِ بِمِثْلِهِ..." وفي قوله أيضا "إِنّي واللهِ يا أهلَ العراقِ، ومَعْدِنَ الشِّقَاقِ والنِّفَاقِ، وَمَساوِئِ الأخلاقْ...". وذلك لاستمالة المتلقي للخطاب من خلال إعطاء الخطبة رونقا ونغما موسيقيا، ترك أثرا في نفس أهل العراق للتأثير فيهم وإقناعهم.

٤.٣.١. الاقتباس:

الذي تأخذ فيه الخطب شيئا من القرآن الكريم أو الحديث النبوي الشريف، ويدرجه الخطيب ضمن كلامه دون الإشارة الصريحة إلى ذلك؛ لتأكيد المعنى الذي أتى به، ويجوز له تغيير شيء قليل في

أصل الكلام الذي اقتبسه؛ وهو ما نجده في قول الحجَّاج؛ "فإنَّكم لَكَأَهْلِ قَرْيَةٍ كانتَ آمنةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيها رِزْقُها رَغَدًا مِن كلِّ مكانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَها اللهُ لِبَاسَ الجوعِ والخوفِ بِمَا كانوا يَصْنَعونَ"، تأكيدا لرؤيته لهم وإيصالا للدلالة التي يريدها إليهم.

فالاقتباس من الحجج الجاهزة التي لعبت دورا أساسيا لاستمالة أهل العراق إلى خطبة الحجَّاج، على اعتبار أن الدليل الديني والحجة القرآنية لا يمكن مناقشتها كبرهان يمكن تكذيبه. وبالتالي سيخضعون له، والغرض الأساسي من اعتماده على الحجة الدينية هو؛ ترهيب أهل الكوفة ومن ثمة إخضاعهم لحُكْمِه وقوانينه دون جدال ولا نقاش.

٢. الآليات التداولية الحجاجية: يقصد بها دراسة اللغة في مستويات تداولها واستعمالها باستحضار المقام والسياق اللغوي، قصد تحديد غرض ومقصدية المتكلم تجاه المتلقي. بالاستناد إلى نظرية أفعال الكلام، السلم الحجاجي، الروابط الحجاجية...، التي تعد أهم المفاهيم الحجاجية التي تهتم بها التداولية، والتي ترتكز أساسا على دراسة التقنيات والآليات الذين يتبناهما المتكلم للتغيير من معتقدات المتلقي، وإقناعه بالموضوع المراد إيصاله، باعتماد الإشارات الدالة والعبارات الدلالية والحجج التداولية؛ إذ لا يمكن لأي مخاطِب أن يستغني عن هذه الآليات التي تهدف إلى استمالة أهواء المتلقي للإذعان له ثم إقناعه. وتتمثل هذه الآليات التداولية الحجاجية في:

١.٢. السلم الحجاجي:

يقوم "السلم الحجاجي على مبدأ التدرج في استعمال الحجج وتوجيهها، فهو علاقة ترتيبية للحجج" (النقاري ٢٠٠٦، ٥٩)؛ فهو يشكل مجموعة من الأقوال التي تستند على شرطين أساسيين مفاد الشرط الأول إقرار التلازم في عمل المحاجة بين القول أو الحجة ونتيجتها. أما الشرط الثاني فيوجب أن تكون كل قولة أو حجة في السلم أعلى مرتبة من التي تليها.

وتستند خطبة الحجَّاج بن يوسف الثقفي على تراتب سُلّمي حجاجي من الأقوى إلى الأضعف ومن قانون الرفع إلى قانون الخفض على الشكل التالي:

١. إني لأنظرُ إلَى الدِّمَاء تُرقرق بينَ العَمَائمِ واللحى.
٢. إني لأرى رُؤُوسًا قد أَيْنَعَتْ وحانَ قِطَافُها، وَإِنِّي لَصَاحِبُها.
٣. إِنِّي لأَحْمِلُ الشَّرَّ بِحِمْلِهِ، وَأَحْذُوهُ بِنَعْلِهِ، وَأَجْزِيهِ بِمِثْلِهِ.

نستنتج من خلال هذه الحجج التداولية للحجَّاج أن الحجج وردت بشكل تراتبي من الأعلى إلى الأسفل، ومن الحجة الأقوى التي هي تنفيذ التهديد والوعيد، كما يتبين من خلال ترتيبها؛ لبيان قوة قدرة الحجَّاج في تنفيذ تهديده لأهل العراق عامة، وأهل الكوفة خاصة للإعراض عما هم فاعلوه لتليها باقي الحجج.

وهو ما يظهر كذلك في المؤهلات التي عرضها على أهل العراق والتي أَهَلَته لحكمه، والتي تتبدى فيما يلي:

١. وَإِنَّ أميرَ المؤمنينَ أطالَ اللّهَ بقاءَه نَثَرَ كِنَانَتَهُ بينَ يَدَيْهِ، فَعَجَمَ عِيدَانَها، فَوَجَدَنِي أَمَرَّها عُودًا وَأَصْلَبَها مَكْسَرًا.

٢. ولقد فُرِرْتُ عن ذَكَاءٍ، وفُتِّشْتُ عن تجربةٍ، وجريتُ إلى الغايةِ القُصْوى.

٣. ما يُقَعْقَعُ لي بالشَّنَانِ، ولا يُغْمَزُ جَانِبِي كَتَغْمَازِ التِّيْنِ.

نستنتج أنها حجج تراتبية لإظهار ذكاء الحجَّاج وفطنته، وحكمته وتجربته، وقوته وحنكته في تسيير الأمور، لذلك تم اختياره واليا على أهل العراق للممارسة الحق، وله القوة في فرض واقع جديد بعيد عن الفتن والصراعات.

أما في قوله:

١. أَمَا واللّهِ لَتَسْتَقِيمُنَّ على طريقِ الحَقّ

٢. أو لأَدَعَنَّ لكلِ رجلٍ منكم شُغْلاً في جَسَدِهِ!

٣. وأَنْ أُوَجِّهَكم لِمَحارِبَةِ عَدُوِّكم مع المُهَلَّبِ بن أبي صُفْرَةَ،

٤. وإِنِّي أُقْسِمُ باللّهِ لا أَجِدُ رَجلاً تَخَلَّفَ بعدَ أَخْذِ عَطَائِهِ بثلاثةِ أَيَّامٍ إلاَّ سَفَكْتُ دَمَهُ، وَأَنْهَبْتُ مَالَهُ، وَهَدَمْتُ مَنْزِلَهُ!

اعتمد الحجّاج تراتبية تحذيرية تنطلق من القول الذي قاله، نحو تطبيقه بالفعل، ثم النتيجة التي تنتظر من أخلّ بهذا الفعل؛ وهي اتباع طريق الحق الذي لا يستطيع أحد من أهل العراق المجادلة فيه، وتوجيههم إلى محاربة عدوّهم الداعي إلى خلق الفتن، ومن تخلف عن فعل ذلك ستكون نهايته أو نتيجته سفك دماءه أي قتله ثم نهب ماله؛ لأن لن يكون موجودا للدفاع عنه، ثم هدم منزله لمسح وجوده عن أرض العراق لكيلا يتذكره أحد. وهو سُلَّم حجاجي مبني على تراتبية منطقية تخاطب العاطفة خوفا قبل حدوث الفعل، ثم العقل باستخدام المنطق لأنه لا قوة فوق قوة دين الحق والقانون والسلطة.

٢.٢. حجة التناص القرآني:

إذا نظرنا في قول الحجاج بن يوسف الثقفي "فإنَّكم لَكَأَهْلِ قَرْيَةٍ كانتَ آمنةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيها رِزْقُها رَغَدًا مِن كلّ مكانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللّهِ فَأَذَاقَها اللّهُ لِبَاسَ الجوعِ والخوفِ بِمَا كانوا يَصْنَعونَ". سنجد أنها آية قرآنية تحتل مرتبة أعلى، وذلك لأن المتلقي لا يمكن أن يجادل أو يحاجج فيها، لأنها من مصدر متفق عليه في الخضوع لقوانينه فوق كل المصادر، متوعدا إياهم بنفس المصير إذا ساروا على نفس نهجهم الخاطئ. من هنا يتبين لنا أنه لحجة التناص القرآني دلالة بيانية تفرض سلطة الخطاب (الخطبة) على المتلقي (أهل العراق) لتؤسس لوظيفة مهمة هي فرض شروط التأثير عليهم وإقناعهم.

٣,٢.نظرية أفعال الكلام:

يعتبر "الفعل الكلامي نواة مركزية، في الكثير من الأعمال التداولية، وفحواه أنه كل ملفوظ ينهض على نظام شكلي دلالي إنجازي تأثيري، ويعد نشاطا ماديا نحويا، يتوسل بأفعال قولية إلى تحقيق أغراض إنجازية، كالطلب والوعد والوعيد...، وغايات تأثيرية تخص ردود فعل المتلقي، كالرفض والقبول، ومن ثم فهو يطمح إلى أن يكون فعلا تأثيريا، أي يطمح إلى التأثير في المخاطب، اجتماعيا أو مؤسساتيا، ومن ثم إنجاز شيء ما." (صحراوي ٢٠٠٨، ٥٤-٥٥)

فنظرية أفعال الكلام تهتم بدراسة اللغة في حالة استعمال الفعل الكلامي وما يتضمنه من خاصية فعلية للكلام، من اكتشاف المنطوقات الأدائية، وفهم ما تختزنه تحتها من أنواع أخرى من الكلام؛ ينجز أيضا في الوقت نفسه تحقيقا لما يشير إليه. وهو ما يظهر في كلامه منذ بداية خطبته في التزام أهل العراق الصمت قبل بداية كلامه، وظهور خوفهم منه مع عرض محتويات كلامه؛ حيث نجد ذلك في قوله القسمي " أما والله إني لأحتمل الشر بحمله"، وهو فعل كلامي تأكيدي هدفه تأكيد الخبر.

كما نلاحظ حضورا لأفعال كلامية مباشرة مثل: "َأَحْذُوهُ"، "َأَجْزِيهِ"، "وَإِنّي لأَرَى"... فهي أفعال إلزامية لفعل القول الذي نثره؛ ذلك أن الحجّاج حقق فعله الإنجازي قبل إنجازه، جعل أهل العراق يتخيلون مدى بشاعته ليتراجعوا عن فعلهم، من خلال تحقيقه لقصده الحجاجي كونه في أعلى مرتبة وأسمى منزلة سلطوية من أهل الكوفة، الشيء الذي أتاح له إمكانيه تهديدهم وفرض قوته عليهم.

كما نجد أفعال الكلام في قوله: "لأَلْحُونَّكم...، ولأَقْرَعَنَّكم...، ولأَعْصِبَنَّكم...، ولأَضْرِبَنَّكم..."، التي قصد بها التهديد وتنفيذ الوعيد، فهي أفعال إلزامية لأن المتكلم يلزم نفسه بتنفيذها كنوع من أنواع العقاب، والتأديب في المستقبل عن كل فعل نهى عنه؛ بحيث استطاع الحجّاج تحقيق فعله الإنجازي، لما يمتلكه من سلطة تمكنه من إصدار أفعال التهديد والتحذير والوعيد.

وهكذا ساهمت هذه الأفعال الكلامية الإنجازية في دعم موقف الحجَّاج من أهل العراق وتعزيز حججه الإقناعية وبلوغ مقاصده الحجاجية لما اعتمد من ألفاظ دالة على الحكم، وهي أفعال تبث في قضايا التي تتركز في سلطة معترف بها رسميا هي سلطة الدولة الأموية.

كما أنّ اعتماد الحجَّاج لأفعال القسم والتعهد بالفعل أسَّسَ لديه إلزامية القيام بعمل معترف به عنده، فالحجاج تفوه بكلام يؤسس به وجوب القيام بمحتوى قوله، وحمل أهل العراق على الاعتراف بهذه الإلزامية.

٤.٢. حجاجية الأسلوب واعتماد الروابط اللغوية

للجانب الأسلوبي دور كبير في خلق الإثارة لدى المتلقي وتأثيره على الخطاب، فهو أشد وطأة على النفوس ولذلك ينبغي للمتكلم الاهتمام به ومراعاته يقول أرسطو "حقا لو أننا نستطيع أن نستجيب إلى الصواب، ونرعى الأمانة من حيث هي لما كانت بنا حاجة إلى الأسلوب ومقتضياته، ولكن علينا ألا نعتمد في الدفاع عن رأينا على شيء سوى البرهنة على الحقيقة، ولكن كثيرا ممن يصغون إلى براهيننا يتأثرون بمشاعرهم أكثر مما يتأثرون بعقولهم فهم في حاجة إلى وسائل الأسلوب أكثر من حاجتهم إلى الحجة" (أرسطو ١٩٧٩، ١٨١، ١٨٢)، لأن الناس لا يصلون إلى الحقيقة المباشرة الصحيحة بسبب تفكيرهم ودرجاتهم متفاوتة، ومن ثم وجب أن تُقَدم الحجة في حُلَّة الأسلوب حتى تحظى بالقبول عند المتلقي.

ولهذا لا يحصل الإقناع بمجرد الإلمام بالحجة وحسب، بل يلزم عنه مراعاة الأسلوب الذي ترد فيه، كما "لا يكفي أن يعرف المرء ما ينبغي أن يقال بل يجب أن يقوله كما ينبغي." (أرسطو ١٩٧٩، ١٨١)

فالأسلوب إذا يؤثر على المتلقي؛ إذ إن وظيفته الأساس هي الإقناع حيث يغدو حضوره ضروريا في الخطاب؛ لأَنَّه يعطي حِدَّة للإقناع ويعطي كذلك مظهرا جماليا يساعد في توثيق العلاقة بين المتكلم والمتلقي. ولذلك نجد الحجَّاج يحاول التأثير في أهل العراق من خلال توظيفه للصور الأسلوبية التي تسهم في جذبهم واستهوائهم واستمالتهم.

فالحجاج إذا ينتقل باللغة من مرحلة الامتثال للقيود اللغوية إلى مرحة الاستسلام لوظيفتها الجمالية الحجاجية بغية القضاء على سلبية أهل العراق. باعتماد فصاحته التي تدل على الصحة أي السلامة اللغوية، والوضوح وهي السمة الثانية المميزة للأسلوب؛ ويعني به أن تكون اللغة واضحة مناسبة للمقام الذي تُوَجَّهُ إليه بحسب الأحوال والظروف. لأن الكلام الذي يعجز عن أداء معناه في وضوح يفوت الغرض منه. فاللغة تكون واضحة أثناء ورودها في المقام المناسب لها والخطبة من أنسب مقامتها هو المسجد.

كما أن اعتماده للروابط الحجاجية أضفى وصلا ترابطيا منطقيا تسلسليا بين الحجج والبراهين والأدلة اللغوية المعتمدة؛ خاصة الرابط اللغوي "الواو" في قوله:

- "أنَا ابنُ جَلا وطَلاَّعِ الثَّنَايَا": حيث جمع الواو بين صفتين وصف بهما نفسه دالتين على القوة والشجاعة، والإقدام دون تراجع أو خوف.
- "يا أهلَ العراقِ، ومَعْدِنَ الشِّقَاقِ والنِّفَاقِ، وَمَساوِئِ الأَخْلاقِ": بَيّنَ الواو صفات أهل العراق الخبيثة بشكل جماعي.
- "وَإِنّي واللهِ لا أَعِدُ إلاَّ وَفَيْتُ، ولا أَهَمُّ إلاَّ أَمْضَيْتُ، ولا أَخْلَقُ إلاَّ فَرَيْتُ": حيث جمع الواو بين صدق وعده، وعلو همته وتنفيذ قراراته.
- "واللهِ لأَلْحُونَّكم لَحْوَ العَصَا، ولأَقْرَعَنَّكم قَرْعَ المُرُوءَةِ، ولأَعْصِبَنَّكم عَصْبَ السَّلَمَةِ، ولأَضْرِبَنَّكم ضَرْبَ غَرَائِبِ الإبلِ"، كشف الواو عن أنواع العقاب الذي سيسلطه الحجَّاج على أهل العراق.

من هنا يتضح لنا أن الربط الحجاجي باعتماد آليات الوصل أبرزها الواو للوصل بين الحجة والأخرى، ضرورة لا بد منها لترتيب هذه الحجج، ورصفها بطريقة تتابعية متسلسلة لتشكيل الهيئة العامة للنص والبنية العامة للخطاب، ومن ثم تقويته وتدعيم النتيجة المتجسدة في استمالة أهل العراق أي المخاطبين، والتأثير فيهم للتراجع عن تمردهم، وزرع الخوف في قلوبهم؛ للخضوع لواليهم الجديد وتنفيذ قراراته التي لا تراجع فيها، معتمدا على فصاحة ظاهرة بائنة سهلة اللفظ، جيدة السبك، قوية المعنى، سالمة من الابتذال وضعف التركيب وتنافر الكلمات، واضحةً مؤثرةً وملائمة لمقام الكلام.

الخاتمة

خلاصة القول؛ يتضح أن خطبة الحجّاج بن يوسف الثقفي جاءت عنيفة الألفاظ، قوية المعاني تستند على أسس بلاغية تداولية حجاجية، ذلك أن البيئة التي وردت فيها تسيطر عليها روح الخصام والجدال، لتجد في هذا الجو المحموم بيئتها لما تتصف به من قوة وعنف نحو أهل العراق المتمردين الذين لا يقبلون أي حوار، ليصلوا إلى نهاية قوامها الخضوع لهذا الخطيب الذي استمالهم بلغته الفصيحة والبليغة، وثقافته الواسعة وموهبته الفطرية، وجهارة صوته الذي أسمع كل الحاضرين لفحوى خطبته، متأثرين برباطة جأشه دون خوف أو خجل من الجماهير العراقية المترقبة له، الراصدة لحركاته وأفعاله وأقواله الخطابية التي جاءت مرتبة القضايا والأفكار، بشكل حمل أهل العراق على قبول ما يتم قوله وتأكيده، بمقتضى الثقة والخوف الذي يشرع الحجَّاج على زرعه فيهم لاستمالتهم والتأثير فيهم ثم إقناعهم.

المصادر والمراجع

١. أرسطو، طاليس، تح: عبد الرحمان البدوي. ١٩٧٩. الخطابة. دار القلم.

٢. الجاحظ، تح: عبد السلام محمد هارون. ١٩٩٨. البيان والتبيين. مكتبة الخانجي.

٣. الجرجاني، علي بن محمد بن علي، تح: إبراهيم الأنباري. ١٤٠٥. التعريفات.دار الكتاب العربي.

٤. زيادة، محمود. ١٩٩٥. الحجاج بن يوسف الثقفي المفترى عليه. دار السلام.

٥. صحراوي، مسعود. ٢٠٠٨. التداولية عند العلماء العرب: دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي. دار التنوير للنشر والتوزيع.

٦. النقاري، حمو. ٢٠٠٦. التحاجج طبيعته ومجالاته ووظائفه. مطبعة النجاح الجديدة.

٧. الحويني، مصطفى الصاوي. ٢٠٠٢. البلاغة العربية: تأصيل وتجديد. مكتبة المعارف.